المحاضرة الخامسة

جامعة الانبار / كلية التربية للعلوم الانسانية - قسم التاريخ / الدراسات العليا /دراسات في تاريخ المغرب والاندلس/ أستاذ المادة : د. عثمان عبدالعزيز صالح

نشوء الامارات المستقلة في المغرب الاسلامي (الادارسة والاغالبة والعبيدية)

أولا:- إمارة الأدارسة(١٧٢-٣٧٥هـ/٧٨٨-٩٨٥م)

ينتسب الأدارسة الى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن الإمام علي بن ابي طالب((رضي الله عنه)) ، الذي فر من موقعة فخ بالقرب من مكة سنة(١٦٩هـ/٧٨٥م) بصحبة مولاه راشد باتجاه بلاج المغرب العربي التي وصلها بمساعدة من واضح صاحب بريد مصر. إذ حمله على البريد الى المغرب ، ولحق ادريس بالمغرب الأقصى هو ومولاه راشد ونزل بمدينة وليلى سنة(١٧٢هـ) ، وفيها يومئذ إسحق بن محمد بن عبد الحميد ، أمير قبيلة أوربة وزعيمها ، فأجاره وجمع البربر على القيام بدعوته.

واجتمعت عليه قبائل زواغة ولواتة وسدراته وغياثه ونفزه ومكناسة وغمارة ومن باقي قبائل البربر بالمغرب الأقصى ، فبايعوه وقاموا بأمره ، وخطب بالناس يوم بويع فقاتل: بعد حمد الله والصلاة على نبيه ، لا تمدن الأعناق الى غيرنا ، فأن الذي تجدونه عندنا من الحق لا تجدونه عند غيرنا.

وأول خطوة اتخذها إدريس بعد بيعة تلك القبائل ، تكوين جيش منهم يمكنه من تحقيق الأهداف التي وضعها ، وبدأ بالزحف بعد ذلك الى منطقة تامسنا لمحاربة البرغواطيين، إذ كان أغلب سكان تلك النواحي على دين اليهودية والنصرانية فأسلموا على يديه.

وفي سنة(١٧٣هـ/٧٨٩م) زحف الى تلمسان ، إذ بايعه أميرها محمد بن خزرفأعطاه الطاعة وبذل له إدريس الأمان ولسائر زناتة ، وبنى بها مسجداً ثم رجع الى مدينة وليلى إذ دس إليه السم بواسطة سليمان بن جرير الشماخ ، فتوفى سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م ، ودفن في مدينة وليلى.

إدريس الثاني

لقد ترك إدريس بن عبد الله زوجته حاملاً ، وبعد وفاته وضعت ولداً أسمه إدريس الثاني وكانت زوجته تدعى كنزة ، وهي من قبائل البربر التي نزل عندهم . وبعد ولاة إدريس الثاني تولى تربيته ورعايته مولى أبيه راشد حتى بويع بالإمارة سنة ١٨٨هـ/٨٠٤م.

ويذكر أن مبايعته جرت في مسجد مدينة وليلى ، وهو ابن إحدى عشرة سنة.

وبعد أن اغتيل راشد الذي رعى إدريس الثاني ، تعهد بكفالته ورعايته أبو خالد بن يزيد بن الياس العبدي .

وقد وفدت على إدريس الثاني قبائل العرب من أفريقية والأندلس ، ويقدر ابن خلدون عددهم ، بخمسمائة فارس أغلبهم من القيسيين والأزد والخزرج ومدلج وبني يحصب وبايعته القبائل المغربية جميعها من زناتة وأوربة وصنهاجة وغمارة.

ولما يتمتع به إدريس الثاني من مكانة كونه من آل بيت محمد((صلى الله عليه وسلم)) فقد استماله هذه القبائل لكونه أوفر حظاً عندهم من الخوارج . ولذلك تمكن من استجماع قوته العسكرية واستكمالها وتعبئتها بجيش قوي مكنته من توطيد حكمه وتحقيق الأمن في بلاد المغرب.

هذا وقد تميز عهد إدريس الثاني بخصائص هي:-

١- تقريبه للعناصر العربية المشرقية ، إذ اتخذ من الذين وفدوا عليه من القيروان بطانة له ، يقول ابن خلدون: "وكانوا بطانة وحاشية واستفحل بهم سلطانه ، هذا وقد استوزر منهم مصعب بن عيسى الأزدي المسمى بالملجوم ، وعبد الله بن مالك المخزومي كاتباً ، وعامر القيسي قاضيا" .

٢- عمل على تأمين حدود إمارته ولاسيما مع الأغالبة ، إذ صالح الأمير إبراهيم بن الأغلب وطلب وده في أن يخلي بينه وبين المغرب الأقصى ، واستجاب ابن الأغلب لطلبه ، إذ تيقن أن للأدارسة الأثر الكبير في تثبيت الإسلام بين قبائل المغرب المحلية ولهم الدور في خدمة الدين الإسلامي من خلال دعم المسيرة العلمية ونشر علوم الدين عبر تشجيع الأمراء الأدارسة للعلماء والأدباء ، واشتهارهم بالاشتغال بعلوم الدين والشريعة الإسلامية .

٣- كسب ود قبائل المغرب لدرجة أن قبيلة أوربة ، ظلت مخلصة تساعد الأدارسة على الرغم من ميل زعيمها إسحاق بن محمود الأوربي الى الأغالبة ، وتآمره معهم ضد إدريس الثاني.

٤- تمكن من مواجهة الخوارج ، فقد حارب صفرية المغرب وقضى على دعوتهم فأمتد حكمه من السوس الأقصى الى وادي شلف.

٥- بناؤه مدينة فاس

لما كثرة الوفود على إدريس الثاني من القيروان والأندلس ، ضاقت مدينة وليلى بالسكان ولذلك عزم إدريس الثاني على إختيار موضع جديد يؤسس فيه مدينة جديدة يسكنها هو وخاصته من قومه.

وفي سنة(١٩٢هـ) شرع ببناء مدينته، وقد وردة روايات مختلفة في تسميتها باسم فاس ، إلا ان الأقرب الى الصحة هو ما ذكره ابن ابي زرع من أن مدينة قديمة كانت تقوم في هذا الموضع ، اندرست قبل مئات السنين وكان اسمها (ساف) فقلب الاسم بعد تمام بناء المدينة فعرفت باسم فاس.

ولما تم بناؤها أمر بالانتقال إليها ، إذ وزع عليهم الأراضي وأَمرهم ببناء الدور وغرس الغروس والأشجار ، ثم أقام سورها ، ومدينة فاس تنقسم الى قسمين ، عرفت الأولى ((بعدوة الأندلسيين)) نسبة إلى الأقوام التي وفدت على إدريس الثاني من الأندلس بعد حادثة الربض . وسميت الثانية ((بعدوة القرويين)) نسبة للقبائل التي وفدت عليه من مدينة القيروان .

هذا وقد شابهت مدينة فاس مدينة بغداد ، من حيث كونها مدينتين يفصل بينهما وادي فاس ، إذ أن بغداد تقسم الى الكرخ والرصافة ، ويفصل بين الكرخ والرصافة نهر دجلة .

وقد احيط بمدينة فاس بعدوتيها الأندلسية والقيروانية ، سورٌ فتحت فيه عدة أبواب ، ففي عدوة الأندلسيين ، ابواب: باب القبلة وباب الخوخة وباب أبو سيفين ، وباب جراوة . أما أبواب سور القرويين فأهمها: باب أفريقية ، وباب القلعة ، وباب الحديد ، وباب الفرج.

وقد أورد البلدانيون معلومات مهمة عن مدينة فاس ، إذ يقول اليعقوبي أنها: "مدينة جليلة يشقها نهر وهي جانبان يليهما أميران مختلفان" ، ويصفها البكري بقوله: "أنهما مدينتان مسورتان مقترنتان مسورتان بينهما نهر مطرد وعدوة القرويين غرب عدوة الأندلسيين" .

أما الإدريسي فيذكر : " انها مدينتان بينهما نهر والمدينة الشمالية تسمى القرويين وتسمى الجنوبية الأندلسيين" .

ويبدو أن إدريس الثاني كان يخشى أن تدبر ضده المؤامرات من قبل قبائل البربر في مدينة وليلى بسبب تقريبه العرب الذين وفدوا عليه من القيروان واستيزارهم في الوظائف الإدارية والعسكرية .

لقد كان لبناء مدينة فاس أثر كبير في دعم إمارة الأدارسة وإرساء دعائمها من الناحية السياسية والعسكرية ، إذ اتخذها منطلقاً لجيوشه التي أعدها لمواجهة الخارجين على سلطة الإمارة من جهة ، والبربر الوثنيين من جهة أخرى ، لاسيما في مناطق نفيس وبلاد المصامدة ، وكذلك غزو قبيلة نفزة في مدينة تلمسان ومحاربة الخوارج الصفرية.

نشأت مدينة فاس لتكون عاصمة لدولة الأدارسة وعاصمة للمغرب الأقصى ، فلم تكن مقراً للحكم فقط وإنما كانت مدينة ملكية لمن جاء بعد إدريس من ابنائه وأحفاده ، حتى صارت كبغداد، بل وقيل عنها بـ"بغداد المغرب" .

الإمارة بعد إدريس الثاني

توفى إدريس الثاني سنة(٢١٣هـ)، وقيل انه مات مسموماً. وقد ترك معقباً اثنى عشر ولداً ذكراً ، وعهد بأمر البلاد الى ابنه الأكبر محمد.

وبإشارة من جدته (كنزة) قَسمَ الأمير محمد بن إدريس الثاني ، إدارة الإمارة بين إخوته واختص هو لنفسه مدينة فاس حاضرة المغرب التي سارت مركزاً سياسياً احتل شهرة مرموقة في جميع انحاء العالم الإسلامي.

وبسبب تقسيمها بين ابناء إدريس ، لم تهدأ أوضاع الإمارة العامة ، ولم يدم عزها سوى ربع قرن ، وتعد فترة حكم محمد بن إدريس (ت٢٢١هـ) وابنه يحيى بن محمد بن إدريس ، الذي شهدة في عهده مدينة فاس ازدهارا واضحاً في جميع ميادينها ، إذ وصفها ابن أبي زرع بقوله: "فكثرت العمارات بها وكثرت الأرباض واتصل البناء حولها من كل جهة" ، وازدهر عمرانها فبنيت الحمامات العامة والفنادق التجارية للتجارة وبنيت الأرباض ورحل إليها الناس من الثغور القاصية والدانية.

ومن أعظم الأمراء الأدارسة سلطاناً ، هو يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس الثاني(ت ٢٩٢هـ) الذي قيل عنه أنه: "كان فقيهاً عارفاً بالحديث ، ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة" .

وفي عهد يحيى هذا بدأت إمارة الأدارسة تتعرض الى خطر العبيديين ، ففي سنة(٣٠٥هـ) انهزم جيش الأدارسة أمام جيش العبيديين ، بقيادة مصالة حبوس الكتامي ، فاضطر يحيى بن إدريس الى طلب الصلح على مال يؤديه للعبيديين ومبايعتهم فجُرِدَ من أعماله وأملاكه وتركت له فاس ليكون أميراً عليها ، لكن هذا الصلح لم يستمر طويلاً ، ولم يشأ العبيديون أن يتركوا الأدارسة ، فقد أقاموا على فاس ريحان الكتامي وهو من كبار قادتهم ، غير أن عهده لم يدم طويلاً ، فبعد ثلاثة اشهر من ولايته ثار في مدينة فاس الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام واستولى عليها وحكمها عامين ، ويشير ابن خلدون الى أن العبيديين دبروا نهاية إمارة الأدارسة بتمكين موسى بن أبي العافية المكناسي الذي ولوه على نول وبلاد تازا وتشجيعه على تصفية أسرة الأدارسة وإجلاء بعضهم عن مدينة فاس. وتعقبهم الى مدينة حجر النسر "الحجر" ، والاستيلاء على عدوة الأندلسيين سنة ٣٧٥هـ .

وفي حجر النسر هذا تعرض الأدارسة الى ضغوط الدولة الأموية بالأندلس . ففي خلافة عبد الرحمن الناصر ألحق الجيش الأموي بقيادة غالب الهزيمة بالحسن بن كنون ، وفي سنة(٣٧٣هـ) تمكن قائد المنصور بن أبي عامر المدعو عسكلاجة من ألحاق الهزيمة بالحسن الذي فر الى مصر ثم عاد فيها متسلماً للمنصور بن أبي عامر الذي دبر اغتياله سنة ٣٧٥هـ ، ووضع بذلك نهاية للإمارة الإدريسية في بلاد المغرب.

ثانيا:ـ إمارة الأغالبة (١٨٤ـ٢٩٦هـ/٨٠٠ـ٩٠٨م)

نشوؤها :

ينتسب الأغالبة الى الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي. وهو عربي من قبيلة تميم التي اسهمت في القضاء على الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية ، وكان الأغلب بن سالم من اصحاب أبي مسلم الخراساني ومن اشجع رجاله.

إن مؤسس الإمارة الأغلبية هو إبراهيم بن الأغلب الذي رحل الى مصر بعد وفاة أبيه ، ويذكر ابن عذارى، أنه تتلمذ على فقهاء مصر إذ كان أحد تلامذة الليث بن سعد ، فقيه مصر (ت١٧٥هـ/٧٩٥م) الذي قال عنه: "ليكونن لهذا الفتى شأن" . وهو ذلك الجندي البارز بين جند مصر الذين لم ترق له الفتن التي ألمت بمصر يوم ذاك فغادرها مع رجاله الى منطقة الزاب في أفريقية ، إذ سيطر عليها بعد أن كسب ود أهلها ورضاء والي أفريقية هرثمة بن أعين الذي أتحفه بالهدايا حتى أقره رسمياً على ولاية الزاب.

ويبدو أن مطامع إبراهيم كانت ولاية أفريقية ، غير أن وجود هرثمة بن أعين كان كفيلاً بأن يحول دون تحقيق هذه المطامع. وكانت أهدافه في تولي أفريقية مقترنة بمساندته وتأييده الخلافة العباسية ، لذلك آزر العكي حين ثار عليه الجند حتى استعاد الولاية على الرغم من سخط القيروانيين.

وكان الخليفة هارون الرشيد قد اعفى هرثمة بن أعين من ولاية أفريقية وعين محمد بن مقاتل العكي والياً على القيروان سنة ٨١هـ.

وكان الاختيار غير موفق ، إذ أخفق العكي تماماً لما عرف عنه من سوء الخلق وفساد السيرة ، فأغظب الجند بسبب قطع أرزاقهم وإساءة معاملتهم، مما أدى الى أن كرهه أهل القيروان حين هادن البيزنطيين في صقلية ولا طفهم ودأب على أرسال موارد البلاد من النحاس والجلود والسلاح إليهم.

وزاد كرههم له عندما تعرض للبهلول بن راشد أحد فقهاء القيروان بالضرب بالسياط حتى الموت ، فناصب فقهاء المالكية العداء.

وقد تمكن إبراهيم بن الأغلب من كسب ود الناس الذين كرهوا ابن العكي والي أفريقية الذي أذهلته المشكلات والاضطرابات السياسية فيها ، فقد كان ابن الأغلب يتمتع بسمعة طيبة لدى الخلافة العباسية بعد أ حسن هرثمة بن أعين والي أفريقية السابق صورته في نظر الخليفة هارون الرشيد كمدافع عن شرعية العباسيين في بلاد المغرب. واشاد بكفايته واخلاصه للخلافة ، وحب الرعية له فكتب له الرشيد العهد بولاية أفريقية في المحرم من عام ١٨٤هـ.

وهكذا صار ابراهيم بن الأغلب والياً على أفريقية بإرادة من الخلافة العباسية حفاظاً على وجود الخلافة الاسمي في المغرب العربي ، إذ لم يبق لهم في المغرب سوى الخطبة والدعاء للخليفة.

والسؤال هنا : ما هي الدوافع التي جعلت الخلافة العباسية تولي إبراهيم بن الأغلب إفريقية ؟

الحقيقة لم تكن مشكلات الخلافة في المشرق هي السبب ، فحدود الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي كانت قد استقرت بعد أن أمن الرشيد جانب البيزنطيين الذين دفعوا له الجزية وبعد أن تآمر الخزر وأثاروا المتاعب في أرمينية سنة ١٨٣هـ أذعنوا للطاعة دون عناء. والبرامكة كانوا لايزالون حتى ذلك الحين يحظون بثقة الرشيد.

ويذهب الدكتور حسين مؤنس، برأي مفاده أن الأمر يتعلق بسياسة الرشيد التي كانت ترمي الى تصفية الجناح الغربي من الدولة العربية الإسلامية بعد أن نفضت الخلافة يدها من شؤون البحر المتوسط وخرجت من ميدانه .

فيما ينفي الدكتور محمود إسماعيل ، سبباً مباشراً لقيام الدولة الأغلبية ، وهو عرض إبراهيم المالي فيما حدث ، إذ أن الرشيد قد منح أحد الشعراء مما لا يزيد على اضعاف هذه الأموال التي تعهد إبراهيم بدفعها للخلافة سنوياً ، بل ليس من شك في أن الحالة المالية للخلافة في عهد الرشيد كانت أحسن بكثير مما كانت عليه أيام المنصور.

ومن ذلك يمكن أن يكون الدافع هو:

١ـ انسلاخ المغربين الأوسط والأقصى عن نفوذ الخلاقة العباسية .

٢ـ قيام إمارة الأدارسة وتهديدها بالقضاء على نفوذ الخلافة في أفريقية، فالأدارسة كانوا يطمعون في توحيد المغرب والمشرق في ظل دولة واحدة .

٣ـ كذلك تفاقم فتن الجند في افريقية وتشكيلهم خطراً مستمراً على ولاة القيروان.

كل ذلك دفع الخلافة الى تسليم زمام الأمور في افريقية الى والٍ يشهد ماضيه بالإخلاص لها والعمل على نصرتها وتثبيت نفوذها في المغرب العربي حتى وإن كان أسمياً فقط .

ويبدو أن الخلافة العباسية بعد فشلها في مواجهة الاوضاع السيئة في المغرب أرادت أن تكون أسرة موالية لها في هذا الجزء وتتحمل الأعباء لكي تنأى هي عن ذلك .

هذا وكانت الخلافة حريصة على الحفاظ على ما تبقى لها من نفوذ في افريقية ، وكان إبراهيم بن الأغلب يراوده أمل الظفر بتأسيس مُلك وراثي . وقد تحققت هذه الآمال بفضل ما وصل إليه من مكانة مرموقة ، وبفضل جيش الزاب الذي مكنه من الظهور على المسرح السياسي كأقوى شخصية تلعب الدور الواضح في أفريقية بعد رحيل هرثمة بن أعين ، هذا فضلاً عن تعلق البربرية كقائد يحقق لهم أمانيهم في الاستقلال الذاتي.

في مقابل ذلك حصل ابن الأغلب على عهد الخليفة هارون الرشيد وموافقته بتثبيته والياً على أفريقية سنة(١٨٤هـ) ، ومن ثم الاقرار له بتأسيس إمارة وراثية تدين بالولاء السياسي والتبعية الأسمية للعباسيين .

إعلان إمارة الأغالبة

أول أمر أتخذه إبراهيم بن الأغلب بعد وصوله القيروان إعلانه ، إياها عاصمة للإمارة الأغلبية ، ثم اتخذ خطوة أخرى ليدلل على مدى التزامه تجاه الخلافة العباسية ، وإخلاصه وولائه هو بناء مدينة جديدة ، وهي مدينة القصر الأبيض المتوسط ، وموقعها جنوب القيروان أسماها العباسية ، إذ شرع ببنائها سنة (١٨٤هـ) .

لقد أتخذ من مدينة العباسية مقراً له ولحاشيته ، إذ اسكن فيها خمسة آلاف من حرسه الخاص السود الذين جيء بهم لخدمته وحمايته.

يبدو أن ابن الأغلب أراد بذلك الابتعاد عن القيروان التي عرفت بكثرة الاضطرابات ومؤامرات الجند والخصوم فيها .

هذا وقد بنى وسطها دار الإمارة والمسجد الجامع وأُحيط بالدواوين ودار السكة ودور سكناها وميادينها ، ثم أحاطها بأسوار حصينة منيعة .

والحق أن ابن الأغلب لم يدخر جهداً في مواجهة الأخطار الخارجية ، إذ بنى القلاع والحصون واتبع من الوسائل ما كفل له الاستمرار في الحكم ولم الأزمات .

أن إبراهيم ابن الأغلب بفضل ما تمتع به من كفاية وشجاعة وتقوى، وذكاء استطاع أن يقيم إمارة جديدة وإن لم يقدر له أن يوطد دعائمها ، ويقضي على مشكلاتها كافة قدر استطاعته والحفاظ عليها وتسليمها لخلفائه ليسهموا بدورهم في تثبيت كيتنها وتوطيد دعائمها.

استقرار إمارة الأغالبة

لقد هيأ إبراهيم بن الأغلب لخلفائه دولة قائمة ، وإن لم يستطع القضاء على جميع المشكلات التي واجهته ، إلا أنه تمكن من أن يحافظ على تلك الدولة .

وتابع خلفاؤه الجهود التي بذلها وعندما علم أبو العباس عبد الله بن إبراهيم ينبأ وفاة أبيه ، حتى عاد مسرعاً الى القيروان وتسلم مهام الإمارة ، وذلك في صفر سنة (١٩٦هـ). وكان إبراهيم بن الأغلب قد عهد الى أبنه عبد الله وأمر زيادة الله أن يبايع أخيه ، إذ كان عبد الله يواجه مجموعات من البربر بطرابلس ، فعاد لتقلد الإمارة.

تولى أبو العباس عبد الله الإمارة لمدة خنس سنوات (١٩٦-٢٠١هـ) واتسم عهده بالهدوء والاستقرار في إمارة متكاملة الأجزاء ، لكنه وُصِفَ بأنه مكروهاً من أُسرته ورعيته، إذ عُرِف بأذلاله أخيه الصغير زيادة الله ، ونكل بأصحابه، كما تجبر في جمع المال من الناس وأَخذه الضرائب ، ولم يسمع نصائح الفقهاء ، فكره لذلك من الرعية طوال مدة ولايته حتى توفي في ذي الحجة من سنة(٢٠١هـ)..

ويبدو أن الاستقرار الذي شهدته الإمارة الأغلبية يعود الى جهود أبيه إبراهيم التي بذلها لبناء الإمارة .

وبويع زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب أميراً لإمارة الأغالبة بعد موت أخيه من ذي الحجة سنة (٢٠١هـ) ، وقد ورث تركة ثقيلة من الأعباء والمتاعب التي خلفها أخوه أبو العباس ، ولم تفلح سياسة بذل المنح والهبات والعطاء وكره فقهاء القيروان إمارة الأغالبة نظراً لسياسة أمرائها. إذ لم تفلح سياسة الاغراء بمناصب الإمارة لغرض كسب ودهم ، ورفضوا الانصياع لهذه المغريات ، وبدأوا يشكلون خطراً على الإمارة ، لعلو مكانتهم وسماع الناس لرأيهم واتباعهم . ومن الجانب الآخر نرى زيادة الله بن إبراهيم كان من أفضل أمراء الأغالبة من حيث القدرة العسكرية والسياسية ، وكان ايضاً محباً للعلماء مقدراً لجهودهم العلمية . ومحباً للفنون المعمارية ، إذ بنى القصور ومراكز الثقافة في مدن القيروان والعباسية وتونس وسوسة ، وايضاً أسس نواة للأسطول العربي الإسلامي المزود بالفنون الحربية والمعدات العسكرية ، لأن سياستهم كانت تهدف الى توسيع نفوذهم في حوض البحر المتوسط . فقام بسلسلة من الحملات البحرية .

ولتعزيز قوته ومد نفوذه وبسط سيطرته ، واجه زيادة الله الأول الثورات التي خرجت على سلطة الإمارة إذ نكل بأصحابها ، منها:.

١- ثورة زياد بن سهل في سنة(٢٠٧هـ) إذ حاصر مدينة باجة وكادت أن تسقط في يده لو لا يقظة الأمير وإعداده لجيشه للقضاء عليه . فقضى على هذه الثورة وباءت بالفشل.

٢- ثورة عمر بن معاوية القيسي حاكم مدينة القصر سنة (٢٠٨هـ) ، وسيطر على القصرين وما حولها ، واستمر في تمرده إلى أن ظفر الأمير به فقتله هو وولديه.

٣- وبعد التنكيل بعمرو بن معاوية وولديه ، خرج منصور الطنبذي بثورة في سنة(٢٠٩هـ) في تونس، وقد استغل الطنبذي هذا كره الجند للأمير وحقدهم وعليه فحشدهم لنفسه لاغتصاب الإمارة ، ولذلك هزت ثورته قواعد الإمارة وسيطر على أفريقية كلها باستثناء الساحل وقابس، وقيل بأنه ضرب السكة.

ولم تحقق هذه الثورة اهدافها بسبب انقسام معسكر الطنبذي هذا ، وخرج قادته عن أمره . وتمكن زيادة الله من استعادة البلاد بلداً بلداً حتى اغتيل الطنبذي على يد القائد عامر بن نافع، والتفت حوله الجند وتزعمهم بعد

موت الطنبذي ، وأخذ دوره في مواجهة الإمارة ولم يصف الجو لزيادة الله إلا بعد موت عامر بن نافع هذا عام ٢١٤هـ ، وفي موته وضعت نهاية للحرب في أفريقية.

الإنجازات الحضارية للأمير زيادة الله الأول

١ـ كان رجل بناء وتشييد ، إذ شغف بالفنون والعمارة والأدب .

٢ـ ففي المجال الاقتصادي ، أبطل ما بدأه أخيه عبد الله الذي قطع العُشر حباً وجعله ثمانية دنانير أصاب أم لم يصب.

٣ـ نجح في كسب ولاء البربر فانضووا تحت لوائه في جيش الإمارة.

٤ـ استمال الفقهاء وكسب ثقتهم بعد أن كانوا يناصبون الإمارة العداء ، فاهتم بمنصب القضاء وقصره على فقهاء المالكية.

٥ـ قام ببناء المساجد والربط ، وأعاد بناء مسجد سيدي عقبة في القيروان عام ٢٢٢هـ دون أن يغير كثيراً من نظامه أو حدوده، حتى انه بالغ في تجميله فصار آية فنية رائعة أثارت إعجاب المعاصرين ، وامتدت شهرة هندسته وزخرفته إلى مسامع البيزنطيين. كما قام بتشييد رباط سوسة وقنطرة أبي الربيع ، وعدت من مظاهر سياسته التي جعلته يكسب من الناس عن طريق ارضاء الفقهاء .

٦ـ وفي الجانب العسكري شروعه في فتح جزيرة صقلية سنة٢١٢هـ واصبحت الجزيرة منذ ذلك التاريخ هدفاً للحملات التجارية .

هذا وحكم إمارة الأغالبة بعد وفاة زيادة الله الأول سنة(٢٢٣هـ) عدد من الأمراء تميزت عهودهم بالاستقرار والهدوء ، وذلك أمر طبيعي ، فالأمراء الأوائل كرسوا قوتهم لدفع الأخطاء المتأتية من المعارضين والمناوئين والثوار والجند المتمردين ، وارساء دعائم الإمارة على أسس متينة وتوطيدها بانتهاج سياسه داخلية تقوم على الإصلاح وإرضاء الرعية وتحقيق مصالحها.

ومن دلائل القوة والنفوذ الذي تمتع به هؤلاء الأمراء الذين حكموا الإمارة بعد زيادة الله الأول. مواصلة هيمنتهم البحرية على جزيرة صقلية وجزر البحر المتوسط الأخرى ، كذلك اهتمامهم بالجانب العمراني ، إذ شادوا مدينة العباسية سنة(٢٢٧هـ). بالقرب من مدينة تاهرت. وكانت هذه تعبيراً عن الالتزام بالعهد والتبعية للخلافة العباسية في بغداد .

وأنشأ الأمير إبراهيم بن أحمد(٢٦١ـ٢٨٩هـ) مدينة رقادة سنة(٢٦٣هـ) وبنى فيها مسجد الفتح الجامع سنة(٢٦٤هـ)، وقصوراً ، وعمرت بالأسواق والحمامات والفنادق وغدت دار ملك لبني الأغلب بعد أن انتقلوا إليها من العباسية. وصارت هذه المدينة بمرور الزمن مركزاً مهماً من مراكز التجارة والعلم والحضارة.

وعلى الرغم من توسعهم في مجال العمارة وبنائهم المدن إلا إنهم احتفظوا بمدينة القيروان كقاعدة لهم وعاصمة للمغرب ، واحتفظت بدورها كمركز سياسي واقتصادي وحضاري مهم . بل وصلت إلى أوج تطورها وتوسعها العمراني وتقدمها الثقافي والاجتماعي وازدهارها الاقتصادي.

وتشير خطط القيروان ومنشآتها المعمارية على عهد الأغالبة بما تعطي تصوراً واضحاً عن اهمية ذلك التقدم الذي شهدته . فيذكر أن طول شارعها الأعظم المسمى(السماط) قد بلغ ميلين وثلث ، ؟أي ما يزيد على ثلاثة كيلو مترات ونصف ، وهذا دليل توسعها وضخامتها وازدياد مرافقها وتشابك المصالح فيها. ويعود هذا الاهتمام بالمدينة من قبل الأغالبة إلى مركزها السياسي وموقعها الجغرافي كمحطة لطرق المواصلات الرئيسة في المغرب.

جهود الأغالبة في فتح جزيرة صقلية

لقد كان هدف الخلافة العباسية منذ وقت مبكر التفكير في السيطرة على البحر المتوسط لغرض تأمين الحماية للسواحل العربية ، سواء أكانت في الشام أو في الشمال الأفريقي أو المغرب بعامة ، وكانت أولى المعارك التي خاضها المسلمون في البحر لهذا الغرض هي معركة ذات الصواري عام ٣٤هـ في خلافة عثمان بن عفان((رضي الله عنه)) .

وفي عهد إمارة الأغالبة وضع امرائها السيطرة على البحر المتوسط نصب أعينهم وذلك لأمرين:ـ

الأول : هو مواصلة الحملات الجهادية لنشر الإسلام في جزر البحر المتوسط بعامة .

الثاني : تأمين حدود الدولة العربية الإسلامية ، وحماية النشاط التجاري للعرب المسلمين .

وقام زيادة الله بسلسلة من الحملات البحرية على جزر البحر المتوسط .

ففي سنة(٢٠١هـ) جهز حملة على جزيرة سردانية.

وفي سنة(٢٠٤هـ) جهز حملة بقيادة عمر بن عبد الله بن الأغلب على جزيرة صقلية.

وفي سنة(٢٠٦هـ) توجهت قطعات زيادة الله البحرية وأسطوله الى الجزر القريبة من تونس ومنها إلى سردانية، لكن هذه الحملات على الرغم من كونها لم تحقق كامل أهدافها إلا أنها اطلعت العرب في أفريقية على جزر البحر المتوسط ، ولاسيما صقلية وسردانية .

واعقبتها سنة(٢١٢هـ) حملة بحرية كبيرة استهدفت فتح صقلية ، وذلك لأهمية جزيرة صقلية من حيث:ـ

١ـ أهمية موقعها الجغرافي لصد غارات الروم البيزنطيين على سواحل الإمارة الأغلبية.

٢. لدرىء خطر المتآمرين وأعداء الأغالبة الذين أتخذوا جزيرة صقلية ملجأً ومستقراً لهم يهددون منها أمن واستقرار الإمارة.

٣. والهدف الأهم هو أنها تُعد بالنسبة للعرب حلقة الوصل بين العالم العربي الإسلامي واوربا . والمعبر المهم لهم لأوربا لغرض القيام بالأعمال الجهادية ونشر الدين الإسلامي .

٤. فضلاً عن الظروف السيئة التي كان يعانيها سكان الجزيرة من حكم البيزنطيين وثقل الضرائب المفروضة على كاهلهم واستلاب موارد ممتلكاتهم في ظل نظام إقطاعي جائر ، جعلهم على استعداد لقبول أي تغيير يحقق لهم إصلاح أحوالهم وتحررهم من أوضاعهم السيئة.

ولتأكيد الهدف الجهادي من وراء الفتح ، جاء اختيار القاضي أسد بن الفرات قائداً للحملة. وأسعد بن الفرات من أعلام الفقه المالكي في مدينة القيروان بل وفي المغرب العربي بعامة . ولذلك جاء اختياره ليكون مشجعاً ودافعاً للأقدام على التضحية من أجل فتح الجزيرة .

ومن جانب آخر نجد أن الأمير زيادة الله قد استفاد من الانشقاق الذي حصل بالقيادة البيزنطية إذ أعلن (فيمي) وهو قائد الأسطول البيزنطي في صقلية تمرده على الإمبراطور ميخائيل الثاني واستيلاءه على سرقوصة ونصب نفسه ملكاً على صقلية ، ولكن اتباعه خرجوا عليه وتمكن والي مدينة (بلرم) من هزيمة فيمي واستيلائه على سرقوصة فالتجأ فيمي إلى الأغالبة ، واتصل بالأمير زيادة الله وهون عليه أمر فتح صقلية ، وأظهر مساعدته له بملك الجزيرة.

وكذلك انسلاخ جزيرة اقر يطش عن السيطرة البيزنطية على يد الثوار الربضيين المهاجرين من الأندلس الذين كانوا قد لجأوا إلى الإسكندرية وهاجروا إليها من الإسكندرية بقيادة أبي حفص عمر بن عيسى البلوطي التي زعزعت القوة البيزنطية العسكرية في البحر المتوسط.

ولتنفيذ عملية الفتح تمت الاستعدادات العسكرية للحملة التي بلغ تعدادها سبعمائة فارس وعشرة آلاف راجل سوى المراكب التي تعود للقائد فيمي.

ودارت بين الجيشين معركة مرج بلاطة نسبة إلى قائد الجيش البيزنطي المدعو بلاطة . ونتيجة لاستبسال جيش المسلمين وموقف أسد بن الفرات القيادي الشجاع فقد انهزم البيزنطيون وقتل قائدهم بلاطة في ١٧ ربيع الثاني سنة(٢١٢هـ). ، ولأهمية هذه المعركة كتب الأمير زيادة الله يبشر الخليفة المأمون بانتصار المسلمين وافتتاح صقلية على يد القائد أسد بن الفرات، الذي توفى أثناء حصاره على سرقوصة سنة(٢١٣هـ/٨٣٨م) مع عدد كبير من المسلمين بعد تفشي وباء في المعسكر العربي المحاصر لسرقوصة.

وتولى قيادة الجيوش الإسلامية بعد وفاة أسد بن الفرات ، عدد من القادة أولهم القائد عثمان بن قرهب الذي جعل للعرب موطئ قدم ثانية في صقلية بفتحه مدينة بلرم في سنة(٢١٦هـ).. ثم تسلم القيادة أبو

فهر محمد بن عبد الله بن الأغلب. وخلفه أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله سنة(٢٢٢هـ) الذي استمرت ولايته عشر سنوات ، وكلاهما قادا عدة حملات ناجحة على المواقع البيزنطية في الجزيرة. وبعد وفاة أبي الأغلب إبراهيم سنة(٢٣٦هـ). أقر الأغالبة على جيوش الفتح في صقلية العباس بن الفضل بن يعقوب. الذي واصل هو الآخر حملاته العسكرية على معاقل البيزنطيين في جزيرة صقلية ومنها مدينة قصريانة الحصينة، وكرد فعل على هذا الانتصار العربي الإسلامي وجه الامبراطور ميخائيل الثالث ٣٠٠مركباً مشحوناً بالعسكر لاستعادة قصريانة من ايدي المسلمين ، إلا أن حملته فشلت ودمرت مراكبه وغنم العرب مائة مركب منها بعد هزيمة البيزنطيين ، وبذلك فرض العرب سيادتهم على ثلثي اراضي الجزيرة ولم يبق بيد البيزنطيين سوى الساحل الشرقي فقط حول مدينة سرقوصة وبعض الجهات الداخلية.

اما سرقوصة معقل البيزنطيين فقد فتح عنوة من قبل القائد العربي جعفر بن محمد سنة(٢٦٤هـ). بعد حصار له دام تسعة أشهر ، وبعدها لم يبق للبيزنطيين في الجزيرة سوى مدينتي طبرمين وقطانيه وبعض المناطق المحدودة في شرق الجزيرة التي تمت السيطرة عليها في عملية جهادية واسعة النطاق قادها الأمير إبراهيم بن أحمد الثاني الأغلبي في ولايته على صقلية التي دامت من سنة(٢٦١هـ)ولغاية(٢٨٩هـ)، وبذلك أصبحت جزيرة صقلية بأسرها بيد العرب المسلمين وقد استغرق فتحها اكثر من ٧٥ سنة وهي مدة ليست بالقصيرة . ويحق لنا أن نسأل: لماذا طال أمد الحرب في صقلية حتى استغرقت هذه المدة ؟

ويبدو أن فتح جزيرة صقلية قد ارتبط أشد الارتباط بتطور الأحوال في كل من أفريقية والدولة البيزنطية .

ويرجح الدكتور خليل السامرائي وزملاؤه تأخر الفتح للأسباب الآتية:.

١. المقاومة الشديدة التي كانت تواجهها قوات الفتح العربي الإسلامي في الجزيرة من قبل قوات بطريق الجزيرة المدعومة بالإمدادات البيزنطية الكبيرة التي كان يرسل بها اباطرة البيزنطيين على عجل لإسناد القوات المحلية المحاربة على أرض صقلية .

٢. بعد المسافة بين جزيرة صقلية والبر الأفريقي ، مما أضعف سرعة إمدادات الأغالبة لقواتهم في الجزيرة .

٣. ارتباط نشاط قوات الفتح الإسلامي في صقلية بالأوضاع الداخلية للإمارة الأغلبية بخاصة وبأفريقية بعامة ، وكذلك يرتبط بأوضاع المسلمين في صقلية ذاتها ، فاستقرارهم كان يسرع في حركة الفتح وحالات الاضطراب توقف عملياتهم العسكرية وتؤخر حركة الفتح ، وهكذا بالنسبة إلى الولاة والقادة المكلفين بالفتح . فكلما كانوا من القادة الأقوياء القادرين على إدارة الأمور في الجزيرة كانت عمليات الفتح تسير بسرعة وتحقق نتائج حاسمة ، والعكس يؤدي إلى شل العمليات وإضعاف قدراتها . وقد تمخض هذا النضال الطويل عن نتائج سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية .

١ـ لقد أصبحت صقلية بلداً إسلامياً تابعاً للإمارة الأغلبية ، وغدا حاكم الجزيرة في بلرم يُعيَن من قبل أمير القيروان. وتحقق للعرب المسلمين سيادتهم على البحر المتوسط بعامة ويتخذ من صقلية قاعدة مهمة للهجوم على الجزر والمضايق القريبة .

٢ـ فتح العرب لجزيرة صقلية ادى إلى انتعاش اقتصادي تجاري ، إذ نشطت حركة التجارة العربية بين المشرق وبلاد المغرب وبين شمال أفريقيا وإيطاليا وباقي دول جنوب أوربا المطلة على البحر المتوسط .

٣ـ شهدت الأحوال الاجتماعية في صقلية تطوراً كبيراً ، فقد اختفى العنصر البيزنطي من الجزيرة وتحررت طبقة العبيد بدخولهم الإسلام ، وظهرت عناصر جديدة من العرب والبربر والنصارى الذين كانوا يشكلون أكثرية في الجزيرة ، وقد اعتنق كثير منهم الإسلام بمرور الزمن ، وكذلك من اليهود وأقوام من اليونان واللمبارد والصقالبة والسود وغيرهم .

٤ـ أصبحت صقلية مركزاً مهماً للحركة العلمية والأدبية في البحر المتوسط الزاخرة بالعلماء الذين أخذوا يتنقلون بين أقطار المشرق والمغرب من خلال رحلاتهم العلمية ، ويؤلفون الكتب في شتى أنواع العلوم الدينية والدنيوية ، وإليهم يعود الفضل في استعمال الورق الأبيض لأول مرة في أوربا .

٥ـ لقد خضعت صقلية للأنظمة المالية والاقتصادية الإسلامية المتعارف عليها في أفريقيا. وازدهرت أحوالهم الاقتصادية على الرغم من كثرة الحروب. وأدخل الأغالبة أنواعاً جديدة من المزروعات إلى الجزيرة كالليمون والبرتقال والقصب والأرز والقطن وايضاً ازدهرت الصناعة وبخاصةً صناعة السفن والجلود والحبال والسكر والورق.

٦ـ ومن أهم نتائج الفتح هي حل مشكلات إمارة الأغالبة الداخلية ، فلا يخفى أن فتن الجند المتوالية شغلت الأغالبة الأوائل وهددت بالقضاء على إمارتهم ، فاستطاع الأمراء التخلص من مثيريها بإرسالهم إلى ميدان الحرب في الجزيرة ، وتحولت أحقادهم ضد إمارة الأغالبة إلى نوع من الحماس الديني له أبعد الأثر في اذكاء روحهم الجهادية.

علاقة الأغالبة بالخلافة العباسية :

إن قيام إمارة الأغالبة كان مرتبطاً أشد الارتباط بعاملين رئيسيين:ـ

الأول : ما ساد المغرب العربي من نزعات الاستقلال والتبعية عن الخلافة الإسلامية في بغداد التي ادت إلى اقتطاع المغرب الأوسط والمغرب الأقصى عن سلطان الخلافة العباسية وتشكيل خطر دائم هدد بانفصال أفريقية وزوال النفوذ العباسي كلياً من المغرب .

الثاني : استجابة الخلافة لهذا التحدي ، وإقرارها قيام أُسرة عربية موالية تتمتع بالاستقرار الذاتي في اطار من الولاء والتبعية لها.

ويبدو أن هذا الأجراء كان بمثابة الحل الأمثل لمشكلات الخلافة العباسية في المغرب ، والضمان الوحيد لحفظ نفوذها في المغرب .

وفي ضوء هذين العاملين والولاء والتبعية للخلافة والاستقلال الداخلي للإمارة تحدد وضع إمارة الأغالبة وعلاقاتها مع الخلافة العباسية.

هذا وقد دأبت الخلافة من جانبها على الاعتراف بالأمراء الأغالبة عن طريق إرسال تقليد الإمارة ، وما يرتبط به من رسوم وإنها لم تتوان في تقديم العون للأمراء الأغالبة في اوقات الأزمات بالقدر الذي سمحت به ظروفها .

وقد درج الأمراء الأغالبة على الاعتراف بالتبعية وإظهار الولاء للخلافة فأسماء الخلفاء تذكر في الخطبة وتنقش على السكة ، وايضاً كانت الأموال السنوية ترسل بانتظام من القيروان ؟إلى بغداد فضلاً عن الهدايا في الأعياد ، ولم يتخذوا لأنفسهم ما يخرجهم عن اطار التبعية كما فعل الأدارسة مثلاً حينما لقبوا أنفسهم بالأئمة ، وكذلك الرستميون. وانتهجوا في سياستهم الخارجية نهجاً يتلاءم مع الأصول العامة للسياسة العباسية .

وهنا يمكن القول بأن إمارة الأغالبة تمتعت بدور فريد لا يدخل في اطار المألوف من النظم الإسلامية . ويؤكد حقيقة وضع الأغالبة ما ذكره النويري بقوله: ".....هذه أول دولة قامت بأفريقية ، جرى عليها اسم الدولة وكان من قبلهم عمالاً إذا مات أحدهم أو صدر منه ما يوجب العزل عزله من يكون أمر المسلمين إليه من الخلفاء في الدولة الأموية والعباسية فلما قامت هذه الدولة كانت كالمستقلة بالأمر ، وإنما كانت ملوكها تراعي أوامر الدولة العباسية ، وتعرف لها حق الفضل والأمر ، وتظهر طاعة مشوبة بمعصية ولو ارادوا عزل واحد منهم والاستبدال به من غير البيت يخالفوهم.....وصار ملوك هذه الدولة يوصون بالملك بعدهم لمن يروه من اولادهم وإخوتهم".

وفي ضوء ذلك لم يكن الأغالبة مستقلين تماما بأفريقيةً ، وإنما مارسوا سلطتهم الداخلية سالكين في سياستهم الخارجية نهج الخلافة العباسية ومن ناحية أخرى لم يكن للخلفاء العباسيين نفوذ فعال في أفريقية ولم يهتموا من جانبهم بتأكيد هذا النفوذ ، ولم يحاولوا إقحام انفسهم في الأمور الداخلية واكتفوا منهم بالولاء والود .

نهاية إمارة الأغالبة :

لقد دب الصراع بين أمراء الأغالبة المتأخرين وأصبح واضحاً في المدة الواقعة بين (٢٣١- ٢٩٠هـ) ولاسيما بين الأمير أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم (٢٢٦- ٢٤٢هـ) وأخيه أبي جعفر أحمد بن الأغلب

وبين الأمير أبي العباس عبد الله بن إبراهيم وأبنه زيادة الله الثالث الذي انتهى بمقتل الأب وتولى زيادة الله بن إبراهيم بن إبراهيم الإمارة سنة (٢٩٠- ٢٩٢هـ) وهي السنة التي وضع فيها العبيديون نهاية لحكم الأغالبة ، إذ لم يقو زيادة الله على الصمود في وجه حشود جيشهم الذي تقدم لإسقاط المدن واحتلالها مبتدئاً بمدينة طبنه وبلزمة وباجاية وتيمبس وقفصة وبلاد قسطيلية والأربس حتى مدينة القصرين وأمام هذا التقدم الظافر قرر زيادة الله الهروب إلى مصر ، فخرج متخفياً ليلاً مع وجوه قومه وفتيانه وألف من عبيده الصقالبة ، وافرغ ما في خزائن الإمارة من ذهب وجواهر ورحل من رقادة متوجهاً إلى مصر تاركاً إمارته أمام الزحف العبيدي إذ أُسدِلَ الستار عن الإمارة الأغلبية سنة ٢٩٦هـ .

ثالثا – الإمارة العبيدية (٢٩٦- ٥٦٧هـ/٩٠٩- ١٠٧١م)

نشوؤها :

عرفت الإمارة بالعبيدية نسبة إلى عبيد الله بن المهدي سعيد بن محمد الحبيب الذي ولد سنة (٢٥٩هـ) في مدينة سالمية وقيل في الكوفة ، وهو آخر الأئمة المستورين لدى الإسماعيلية والإمام المستور عندهم مفاده أن يستتر قسم من أئمتهم بتأثير الظروف مما ترتب عليه قيام عدد من الأئمة المستورين بين محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وبين ظهور العبيديين لذا عرفت هذه الإمارة في الكتابات التاريخية في بلاد المغرب باسم الإمارة العبيدية وأهلها باسم العبيديين.

لقد بدأ عهد نشوء هذه الإمارة بإرسال داعيتين من مقرهم في سالمية في بلاد المشرق بين حمص وحماه إلى بلاد المغرب وهما عبد الله بن علي بن أحمد المعروف بالحلواني، وأبو سفيان الحسن بن القاسم لاستمالة قبائل المغرب لدعوتهم بستر وحذر ، فاستطاع هذان الداعيتان أن يكسبا أنصاراً في مدن متعددة من المغرب الأدنى مثل كتالة ونفطة ومجانة وسبيبة وباجاية ، وغدت فيما بعد ركيزة للحركة العبيدية السياسية لاسيما وإن المغرب الأقصى قد شهد نجاح دعوة الأدارسة العلويين في استمالة البربر وتأسيس إمارتهم قبل العبيديين بقرن من الزمن تقريباً . مما كان يشكل في الأساس عاملاً مساعداً لنجاح العبيديين لكونهما ينتميان للعلويين على حسب ادعائهم هم . وبعد وفاة الداعيتين عبد الله الحلواني وأبو سفيان بن القاسم ، اللذين سبق ذكرهما ، ارسل عبيد الله بن المهدي داعية ثالثة يعرف باسم (الداعي) وهو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا ، الذي كان يكنى (بأبي عبد الله) وكانت له ألقاب عدة منها ، الصنعاني والمحتسب والمعلم والصوفي والأحوازي. وكان قد ارسل إلى بلاد المغرب ليقود دعوتهم هناك ، ويقول أبن عذارى: أن أبا عبد الله التقى بعشرة من زعماء قبيلة كتامة في الحجاز واستمالتهم لدعوته ، اتفق معهم على الرحيل إلى بلاد المغرب يحشد كتامة وبقية القبائل المغربية الأخرى مثل عجيسة وزواوة ، ويكون قوة تستطيع أن تثبت أقدامها في هذه

البلاد النائية عن نفوذ العباسيين ، وبوصول أبي عبد الله الداعي إلى المغرب تبدأ مرحلة مهمة من مراحل اتصالاته وتقصيه للأوضاع والظروف التي كانت تمر بها هذه ، إذ استطاع أن يوحد صفوف قبيلة كتامة للنهوض بأعباء الدعوة من الناحية العسكرية ، وكان يقول لهم "أنا لا أدعوكم لنفسي وإنما ادعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت" وبهذه الطريقة جمع حوله الأعوان ليجابه أول قوة واجهته في بلاد المغرب الأدنى هي قوة الأغالبة بقيادة الأمير إبراهيم بن أحمد (٢٦١- ٢٨٩هـ) الذي اثارت مخاوفه نمط الردود التي أجاب بها الداعي على رسالة الأمير الأغلبي له. إلا أن موقف الأغالبة هذا لم يكن فعالاً ضد الداعي لأنهم كانوا مشغولين بخلافاتهم ، إذ فر آخر أمرائهم زيادة الله إلى المشرق بعد أن قتل أخاه أبو عبد الله محمد الملقب بالأحول ، واضعاً بذلك بداية النهاية لأسرة الأغالبة في بلاد المغرب. وتهيأت الفرصة بذلك لأبي عبد الله الداعي تنفيذ خطته بالإجهاز على جيش الأغالبة إذ التقى به وهزمه في موقعة كينونة سنة ٢٨٩هـ ، مما سهل عليه اجتياح مدن الأغالبة في كسطيف وبجاية وقرطاجنة ونيسة والقصرين كما تمكن من الاستيلاء على قسنطينة وقفصة ، ثم دخلت جيوشهم مدينة الأربس واحتلت مدينة رقادة إذ تمت تصفية إمارة الأغالبة بالزحف النهائي على القيروان.

وبعد أن استقرت الأمور ومهد أبو عبد الله الداعي أوضاع المغرب الأدنى كتب إلى عبيد الله المهدي يدعوه للقدوم إلى هذه البلاد وبالفعل فقد رحل عبيد الله متخفياً إلى سجلماسة عاصمة المدراريين ، إذ اكرم أميرها اليسع بن مدرار. ثم جاءه كتاب من زيادة الله ويقال كتاب المكتفي بأنه المهدي داعيته في كتامة حبسه اليسع وضيق عليه. لكن أبا عبد الله المحتسب استطاع أن يحرره من سجنه بعد أن أَلحق الهزيمة بأمير سجلماسة وبذلك اصبحت سجلماسة في اطار النفوذ العبيدي ، وبعدها توجه عبيد الله المهدي إلى رقادة سنة ٢٩٦هـ واعلن عن قيام الإمارة العبيدية بعد نزوله في قصر الصحن ومقابلته لوفود الفقهاء ووجوه أهل القيروان الذين دعوا له وهنئوه واظهروا له السرور وسألوه تجديد الأمان لهم.

الأمراء العبيديون

١- عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر(٢٩٧-٣٢٢هـ/٩٠٩-٩٣٤م) وهو أول الأمراء العبيديين بعد اعلان إمارتهم بالمغرب ، ومن التدابير التي اتخذها:-

أ- قتل عبيد الله المهدي ، أبا عبد الله الداعي ، ابرز قادته ومؤسس إمارته، إذ عمد إلى تجريده من سلطاته وابعاد رجاله عنه ثم القضاء عليهم تدريجياً قم الاجهاز عليه واغتياله بخطة اعدها عبيد الله المهدي.

ب - اتخذ لقب ((المهدي أمير المؤمنين))

ت - اسند لرجاله من حاشيته مناصب مهمة مثل الأشراف على بيت المال ، وقضاء رقادة وديوان الكتابة والخراج والحجابة .

ث ـ ضرب السكة وثبت الموالي وابناء العبيد في ديوان العطاء .

جـ ـ اتخاذه عاصمة جديدة لإمارته وسماها المهدية وقال عنها: "تعتصم بها الفواطم ساعة من نهار" والمهدية كانت تقع موقع حصين يحيط بها البحر من ثلاث جهان.

حـ ـ انشأ داراً لصناعة السفن .

هذا وعلى الرغم من الاستقرار الذي شهدته الإمارة في عهده إلا إنه اثار حفيظة بعض بطون كتامة بعد مقتل ابي عبد الله الداعي وأخيه ابي العباس. وقام عدد من كبراء أهل القيروان بتدبير مؤامرة لقتله . على اثرها ثار أهل طرابلس على عامل العبيديين. على الرغم من أن العبيديين تمكنوا من اخماد تلك الثورات ، إلا إنها ادت إلى زعزعة أمن واستقرارها ، وحدوث انشقاق بين بُناة الإمارة ، واخص رجالها وتصدع عقيدتهم .

٢ـ القائم أبو القاسم محمد (٣٢٢ـ٣٣٤هـ/٩٣٤ـ٩٤٥م) .

٣ـ المنصور ابو طاهر إسماعيل (٣٣٤ـ٣٤١هـ /٩٤٥ـ٩٥٢م) .

٤ـ المعز ابو تميم معد (٣٤١ـ٣٦٥هـ/٩٥٢ـ٩٧٥م) وفي عهده سنة ٣٦٢هـ انتقل العبيديون إلى مصر وتلقبوا بالفاطميين

العبيديون وعلاقتهم بالخلافة العباسية

لقد كان العباسيون ينظرون إلى العبيديين وإقامة إمارة مستقلة لهم في بلاد المغرب العربي على انها تحد سافر لنفوذ الخلافة العباسية الروحي والسياسي . وعملوا على وقف هذا النفوذ بحث رعاياهم على الوقوف صفاً واحداً وراء الأغالبة المطيعين للخليفة العباسي ، وقد عملوا على تحشيد جميع المؤمنين بقدسية الخلافة ورسومها الدينية والسياسية والعسكرية لمواجهة هذا الخطر . لكن بعد ما اصيب الأغالبة بالهزيمة اثر انشغالهم بالظروف السيئة في المشرق بسبب نشاط الحركات المضادة ، وتسلط العنصر التركي وهيمنته على مقدرات الخلافة ،

واصبح موقف الخلافة العباسية اكثر وضوحاً من العبيديين بعد محاولة مد العبيديين نفوذهم نحو جزيرة صقلية ، إذ تحركوا بجدية اكثر لإيقاف إجراءاتهم في صقلية بإرسال واليهم الحسن بن أحمد بن علي على صقلية ، والقاضي اسحاق بن ابي المنهال ، فاضطر العبيديون إلى تعيين والٍ آخر هو علي بن عمر البلوي سنة(٢٩٩هـ) الذي نشط في الوقوف ضد حركة المقاومة التي اثمرت بانتفاضة ضد العبيديين التي كان يغذيها العباسيون بموافقة الخليفة المقتدر بالله ، فقد آلت إلى الإطاحة بالوالي العبيدي واعيدت الخطبة والدعوة العباسية . وبذلك يذكر ابن عذارى ، إن أهل صقلية قدموا على انفسهم أحمد بن زيادة الله بن قرهب سنة (٣٠٠هـ) وبعث إليه الخليفة العباسي بألوية سوداء ، وخلع وطوق ذهب.

واستمرت المناوشات بين العباسيين والعبيديين قائمة حتى سنة(٣٣٦هـ) حين ظفر العبيديون بفرض سيطرتهم التامة على الجزيرة ، وتولت اسرة عربية جديدة هي اسرة الحسن بن علي بن ابي الحسين الكلبي التي استمرت حتى الاحتلال النورماندي للجزيرة في نهاية القرن الخامس الهجري . لكن هدف العبيديين الستراتيجي اصبح واضحاً بمحاولتهم السيطرة على ولايتي الشام والحجاز عن طريق احتلال مصر ، وبسط نفوذهم السياسي والديني عليها ، ومن اجل هذا الهدف تقدمت جيوش العبيديين سنة(٣٥٨هـ). إلى مصر في عهد المعز لدين الله العبيدي بقيادة ابي الحسن جوهر بن عبد الله الصقلبي ، ودخلت مدينة الإسكندرية من دون مقاومة ، ثم تقدمت نحو مدينة الفسطاط وفرضت سيطرتها على المدينة بالرغم من المقاومة التي ابداها الإخشيديون الذين كانوا يحكمون مصر باسم العباسيين. وقطعوا الخطبة للخليفة العباسي المطيع لله ، والدعوة للمعز لدين الله العبيدي ولآبائه الذي أوجد لعائلته النسب العلوي وتسمى بالخليفة الفاطمي ، وازال شعار العباسيين وسك دنانير سجل عليها تاريخ الفتح ، واسم المعز لدين الله وشعار الفاطميين. واتخذوا مصر مقراً لهم واسسوا مدينة القاهرة سنة ٣٥٨هـ وجعلوها عاصمة لهم.

واخذ الفاطميون يقلصون النفوذ العباسي ، فتقدموا لاحتلال بلاد الشام لكونها قاعدة لحراسة بلاد المغرب ورأس جسر يمتد نحو حاضرة العباسيين بغداد. وكذلك نحو الحجاز ، لكن مع ذلك اصبحت الخلافة العباسية هي القوة الوحيدة التي تهيمن روحياً وسياسياً على العالم الإسلامي على الرغم من ان قوة جديدة ظهرت هي الخلافة الفاطمية .